بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى: وروى الإمام أحمد عن سعد بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: ((إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه))، قال: فوضعته ثم رجعت قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يُبلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي قال: قلت: قد أنزل الله في شيئاً، قال: ((كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وُهب لي، فهو لك))، قال: وأنزل الله هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} [سورة الأنفال(١)]. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث احتج به من قال: إن الأنفال ليست هي الغنائم، وإنما ما يعطى زيادة على السهم، كما قال ابن جرير -رحمه الله-، وتقدم أقوال العلماء في المراد بالأنفال فمنهم من قال: الغنائم، ومنهم من قال: إنها ما جاء للمسلمين من غير قتال؛ كالفرس يند، والعبد يدركه المسلمون، وما يحصل من غير قتال، ومنهم من يقول: هي ما يعطى للسرايا زيادة على سُهمانهم من الغنيمة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعطيهم فوق ذلك، ومنهم من يقول: هو خمس الغنيمة لأنها تقسم على خمسة أقسام، فهذا الخمس يعطون منه، ومنهم من يقول: خمس الخمس، وسبب النزول في هذا الحديث هو طلب السيف، قال: أعطنيه، فأبى، ثم بعد ذلك أعطاه إياه، وليس في قسم الغنيمة، يقول: فنزلت الآية، ويحتمل أن يكون المراد أنها نزلت بعد هذا كله؛ لأنه ورد فيها أسباب صحيحة متعددة، وأخرى ضعيفة، ومن هذه الأسباب طلب سعد -رضي الله تعالى عنه- للسيف، فهذا مما يعطاه فوق قسم الغنيمة، ووردت أحاديث أخرى تدل على أنهم تنازعوا في أصل الغنيمة، فنزلت الآية، فتكون الآية نزلت في بدر بعدما وقع ما وقع فيما يتعلق بأصل الغنيمة، وكذلك فيما يطلبه بعضهم من العطاء من الغنائم قبل قسمها، وكذلك ما يتصل بالخمس ما شأنه وكيف يُصرف وكيف يتصرف به؟، فالآية نازلة بعد هذه الأمور جميعاً، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ} [سورة الأنفال(٤١)]، إما ناسخة على قول بعض أهل العلم، أي: جعل الله الغنائم لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- وليست للمقاتلين في أول الأمر، ثم نسخ بقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ} فخمسها، ويحتمل أن تكون غير منسوخة وإنما هي مبينة لها، ثم بيّن هذا الحكم بقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم} والنسخ لا يثبت بالاحتمال.

---

1 - رواه أبو داود برقم(٢٧٤٠)، كتاب الجهاد، باب في النفل، والترمذي برقم (٣٠٧٩)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأنفال، وأحمد في المسند (١١٧/٣)، برقم (١٥٣٨)، وقال محققوه: إسناده حسن، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٧٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقسمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء[٢].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [سورة الأنفال(١)]، فقسمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين المسلمين، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أغار في أرض العدو نفَّل الربع، فإذا أقبل -وكلُّ الناس- راجعاً نفَّل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: ((ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم))[٣]، وروى الترمذي وابن ماجه نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن[٤].

وقوله تعالى: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه.

قوله: {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [سورة الأنفال(١)]، أي: أصلحوا فيما بينكم، وبعض أهل العلم يقول: {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: ما وقع بينكم من الكلام حينما اختلفتم، {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}، ما وقع بينكم علانية، فكل منكم يقول ويرد ويجادل، هذا يقول: أنا أحق، وهذا يقول: أنا أحق، فيحصل التشاحن، وهذا يقابل ما يقع في سر الإنسان ويقال له: ذات الصدور {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[سورة الأنفال(٤٣)]، فما يقع بين الإنسان وإخوانه يقال: ذات البين، وفسره بعضهم بالوصلة التي تكون بينهم، وهي أقوال متقاربة، وهذه الوصلة هي الرابطة الإيمانية، والأخوة الإسلامية، فتكون نقية من كدر الحقد والغل والغش والشحناء، أي أصلحوا حقيقة ما بينكم.

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ} [سورة الأنفال(١)]، أي: في قسمه بينكم على ما أراد الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا تحريج من الله ورسوله على المؤمنين أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، وكذا قال مجاهد.

---

2 - رواه الإمام أحمد في المسند (٤١١/٣٧)، برقم (٢٢٧٤٧)، وقال محققوه: إسناده حسن لغيره.

3 - رواه أحمد في المسند (٤٢٢/٣٧)، برقم (٢٢٧٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره، وابن ماجه برقم (٢٨٥٣)، كتاب الجهاد، باب النفل، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٣٠٢).

4 - رواه الترمذي برقم (١٥٦١)، كتاب السير، باب في النفل، وابن ماجه برقم (٢٨٥٣)، كتاب الجهاد، باب النفل، وأحمد في المسند (٤٢٢/٣٧)، برقم (٢٢٧٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٣٠٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال السدي: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: لا تستبوا.

قوله: لا تستبوا، أي: ارفعوا أسباب الشر والخلاف، والشحناء وكل ما يوغر الصدر بين المسلم وأخيه.

قوله: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١)]، هذا يدل على أن صلاح ذات البين من الأمور الواجبة، ولذلك علّقه بالإيمان فقال: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} فافعلوا ما أمرتكم به، ومثل هذا مفهوم المخالفة فيه غير مراد، بمعنى أن الإنسان الذي يكون بينه وبين إخوانه شحناء ليس معنى ذلك أنه ليس بمؤمن، فيكون المعنى إن كنتم مؤمنين حقاً فأصلحوا ذات بينكم، وهذا الأسلوب يستعمل للتحضيض والتحريض، كقولك: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، تريد حثه على هذا الفعل وتحفيزه، وأنت تعلم أنه ابن أبيه.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الأنفال(٢-٤)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فأدوا فرائضه، {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} يقول: زادتهم تصديقاً، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فرقت، أي فزعت وخافت، وكذا قال السدي وغير واحد، وهذه صفة المؤمن، حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره، كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران(١٣٥)]، وكقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[سورة النازعات(٤٠-٤١)] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية فيقال له: اتق الله، فَيَجِل قلبه.

الوجل هو الخوف، أو خوف خاص، وهو خوف مع خشية، وقد يكون واقعاً من العذاب، وقد يكون خوف إجلال وتعظيم، كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}[سورة المؤمنون(٦٠)]، أي: في حال الإحسان قلوبهم وجلة خائفة مشفقة، يخشون الله -عز وجل-، يخشون أن لا يقبل ذلك منهم، فقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [سورة الأنفال(٢)]، جاء بأسلوب الحصر والقصر، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، وهي من أقوى الصيغ في الحصر، أعلى وأقوى منها النفي والاستثناء نحو لا إله إلا الله، ثم تأتي هذه الصيغة، ومفهومها أيضاً كذلك في القوة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} لكن مفهوم المخالفة غير مراد، ولكن حينما يذكر الله -عز وجل- مثل هذا بأسلوب القصر والحصر {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، فهذا يدل على أن هذا من الصفات الواجبة في الإيمان، أي من الإيمان الواجب، وكذلك إذا نفى الإيمان عنه حيث قال: ((والله لا يؤمن، والله لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يؤمن، والله لا يؤمن)) قيل: من يا رسول الله؟ قال: ((من لا يأمن جاره بوائقه))[٥]، نفى عنه الإيمان، لكن مفهوم المخالفة في هذا الحديث غير مراد، فلا يكفر الإنسان بالمعصية والذنب بمجرد فعله، وإنما هذا يدل على أن هذا الفعل من الإيمان الواجب، أن يكون الإنسان مأمون الجانب لدى الجار، لا يصل إليه منه الشر والسوء والأذى، وإلا فإنه يكون قد نقص من إيمانه الواجب الذي يستحق عليه العذاب، فلا يخلص ولا ينجو عند الله -تبارك وتعالى- حتى يمحَّص أو يغفر له بحسنات ماحية، أو مصائب تصيبه في الدنيا تكفر عنه، لكن هذا من المعاني أو الأمور التي يجب تحقيقها، أو مثلما جاء بأسلوب الحصر: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحجرات(١٥)]، فهذه الصفات كلها من الإيمان الواجب، الذي لا يتحقق إلا به أصلاً، وهناك إيمان واجب يحصل أصل الإيمان به فتحصل النجاة عند الله -عز وجل-، لكن صاحبه يستحق العقوبة حتى يمحص، إلا أن يغفر الله -عز وجل- له، وهناك كمال في الإيمان مستحب، ((الإيمان بضع وستون شعبة: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى))[٦].

فقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: خافت وأشفقت، وحصلت لهم الخشية.

وقوله: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[سورة الأنفال (٢)]، **كقوله**: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[**سورة التوبة** (١٢٤)].

هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، كقول الله -عز وجل-: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا}[سورة المدثر(٣١)]، والنصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جداً في الكتاب والسنة، وحديث "نافقَ حنظلة" يدل على هذا المعنى، فهو يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إنهم إذا كانوا عنده فإنهم يكونون في حالة من الإيمان عالية؛ كأنهم يرون الجنة والنار، وإذا رجعوا إلى بيوتهم وعافسوا الأزواج والأولاد والضيعات نقص[٧]، وكل ما يزيد فهو ينقص ولا بد، فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقوله: زادتهم تصديقاً، ليست الزيادة تصديقاً فقط؛ لأن الإيمان قول واعتقاد وعمل، قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [سورة الأنفال(٢)]، أي: زادتهم تصديقاً وانقياداً وإقراراً واعترافاً، فالتصديق يزيد وينقص، وهذا أمر مشاهد، فالإنسان يتفاوت تصديقه في الأمور، فأحياناً يسمع الخبر ويجزم أنه كذب، وأحياناً يسمع الخبر من ناقل آخر ويتردد فيه، وأحياناً يسمع الخبر ممن يثق به ويحصل له به العلم، فإذا جاء مخبر آخر ازداد هذا العلم، فإذا وُجدت قرائن تدل على صدقه ازداد هذا العلم، وهكذا، فالتصديق يزداد وينقص {زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}: زادتهم إقراراً وإذعاناً وتصديقاً وانقياداً أيضاً، وكذلك أيضاً

---

5 - رواه البخاري برقم (٥٦٧٠)، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم برقم (٧٣)، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، واللفظ للبخاري.

6 - رواه البخاري برقم (٩)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم برقم (٥٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

7 - رواه مسلم برقم (٢٧٥٠)، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تزيدهم عملاً، فالصلاة إيمان، والزكاة إيمان، وقبول شرائع الإسلام كل ذلك من الإيمان، فكل آية تنزل يصدقون بها، وأنها من عند الله -عز وجل-، فهذا إيمان جديد، وما تضمنته من الأحكام والآداب وما أشبه ذلك يذعنون له ويقبلونه عن الله -عز وجل-، ويعملون به، فهذا أيضاً إيمان، فكل ذلك داخل في زيادة هذا الإيمان، {زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بيّنا ذلك مستقصى في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

هذه المسألة أي: زيادة الإيمان لم يخالف فيها إلا بعض أهل البدع الذين قالوا: لا يزيد ولا ينقص وإنما زيادته ونقصانه بزيادة ونقص متعلقاته فقط، فنفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، وهذا قول باطل وهو مخالف لما استقر في النفوس، وما دلت عليه النصوص؛ ولذلك يقول بعض هؤلاء: إن العلم لا يزيد ولا ينقص، وإنما يزيد بزيادة متعلقاته، وهذا بناء على عقيدتهم الفاسدة، وهكذا تجد مثل هذا الكلام في أصول الفقه، وفي علوم الحديث، حيث يقولون: إن خبر الواحد مطلقاً يفيد الظن ولا يفيد العلم؛ لأن العلم عندهم لا يتفاوت، بناء على أن الإيمان لا يتفاوت، كل هذا مبني على عقائدهم الفاسدة، والله أعلم.

قوله: "كما بيّنا ذلك مستقصى في شرح البخاري ولله الحمد والمنة"، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- شرح البخاري لكنه لم يكمله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com